حجاج غرب إفريقيا فى منطقة الجزيرة بالسودان (١٩٢٥-١٩٦٦)

د. بدوى رياض عبد السميع

مقدمة:

عرفت الشعوب المختلفة التحركات البشرية من أجل الحج من غابر الأزمنة وحتى الوقت الراهن، وشهدت المدن المقدسة والأماكن ذات الطبيعة الدينية لمختلف الأديان تحركات بشرية وتنقلات واسعة لأصحاب هذه الديانات لزيارتها والإرتحال إليها، وربما الاستقرار فيها. وقد شكّل الحج عنصرًا مهمًا من عناصر الحركة للشعوب الإسلامية من غرب إفريقيا غربًا وحتى حدود الصين شرقًا، وهو أكثر التحركات السكانية البارزة فى الشرق الأوسط؛ ليس فقط لحجمه بل أيضا لديمومته.

ولما كان الحج أحد أركان الإسلام الذى يجب أن يقوم به المسلم مرة على الأقل فى عمره، فقد كان عاملاً أساسيًا ومهمًا أدى إلى وجود عدد كبير من أهالى غرب إفريقيا فى السودان. ولما كانت الرحلة البرية إلى مكة المكرمة تستغرق بضع سنوات، وكان غالبية المهاجرين إلى الحج من أصل ريفى، وكانوا يمتهنون الزراعة، ولما كان معظم المغادرين يصطحبون معهم عائلاتهم، فقد استقر جزء كبير من هؤلاء فى السودان مفضلًا عدم العودة إلى غرب إفريقيا. وقد عمل الكثير من هؤلاء فى الزراعة، وخاصة فى مناطق زراعة القطن فى مشروع الجزيرة فى السودان.

وطبقًا لأول إحصاء سودانى للسكان عام ١٩٥٥-١٩٥٦، وصف أكثر من ٦٠٠ ألف نسمة من السكان، البالغ عددهم عندئذ ١٠.٢٥ مليون نسمة، أنهم من أصول ترجع إلى غرب إفريقيا، معظمهم من نيجيريا وتشاد. وبالتالى تحاول هذه الورقة الوقوف على الأثر الاقتصادى لرحلة الحج البرية من غرب إفريقيا إلى مكة المكرمة على منطقة الجزيرة بالسودان، من خلال النقاط التالية:

أولاً- الصلات التاريخية بين السودان وغرب إفريقيا:

هناك بعض الأدلة على الاتصال المبكر عن طريق الهجرات بين السودان والدول التى تقع غربه؛ إذ لم تنقطع حركة الناس والأفكار على طول طريق السافانا العشبى الممتد من السنغال إلى إثيوبيا منذ آلاف السنين. ويبدو أن فكرة الزراعة على المطر قد انتقلت إلى السودان من الغرب عن طريق المزارعين المهاجرين ربما فى حدود سنة ٢٠٠٠ ق.م.، وربما حدث تدفق رئيس من الناس بشكل أكبر من الغرب بعد عام ١٣٤٠م[1]. وقد جمع أركل Arkell أدلة عن علاقة قديمة ووثيقة بين مملكتى كانم وبرنو

---

1) (Davies, H. R. J.: the West African in Economic Geography of Sudan, Geography, Vol. 49, No. 3, XXTH International Geographical Congress, July 1964, p. 222.

النيجيريتين والسودان الشرقى حيث النيل الأزرق، مشيرًا إلى أنه بحدود حوالى القرن الثالث عشر تمددت مملكة برنو إلى النيل فى المنطقة المعروفة الآن "بوادى حلفا" Wadi Halfa[٢].

كما يُحتمل أن يكون الفونج Fung الذين أسقطوا مملكة علوة المسيحية حوالى سنة ١٥٠٥ قد جاءوا من البرنو Burno شمال شرق نيجيريا، ربما كفرع من البيت الحاكم الذى هاجر شرقًا نتيجة للاضطرابات السياسية[٣]. والإسلام بكل احتمال وصل دارفور من الغرب، والبلد الأقرب الذى يمكن أن يكون قد وصل منها هى البرنو. وهناك دليل قوى أن دارفور بالإضافة إلى ودّاى Wadai كانت فى فترة غير بعيدة تابعة لسلطان البرنو[٤].

وقد تزامن تأسيس مملكة الفونج فى سنّار Sennar مع دخول الاسلام، والتزم رمز الإسلام فى السودان بصلات وثيقة مع غرب إفريقيا أكثر من النيل السفلى. لاحقًا، حصل المهدى أيضًا على قدر كبير من الدعم والتعاطف والأفكار من اتصالاته بالأراضى الواقعة غرب السودان[٥]، والتحق بعض الحجاج الأفارقة بالحركة المهدية، لينالوا بركات المهدى وخليفته[٦].

ثانيًا- أثر الحج فى هجرة أهالى غرب إفريقيا إلى السودان:

للحج من غرب إفريقيا إلى مكة المكرمة تاريخ طويل بدأ فى القرن الرابع عشر؛ حيث كان الحجاج قليلى العدد، وأغنياء فى الغالب، ومن الطبقات الحاكمة للإمارات والسلطنات الإسلامية لمنطقة السفانا. وقد سافر هؤلاء الحجاج إلى مكة المكرمة عن طريق اجتياز الصحراء إلى شمال إفريقيا. وكان توجيه الطرق شمالاً عبر الصحراء سمة لحج أهالى غرب إفريقيا حتى مطلع القرن العشرين، عندما أجبرت الهجمات على شمال إفريقيا إلى تغيير رحلة الحج شرقًا مباشرة نحو النيل، على طول الطريق المعروف بالكاد آنذاك عبر السفانا لما أصبح الكاميرون، وتشاد، والسودان[٧]. هذا الطريق الجديد المرتبط بالاختراق الأوروبى لإفريقيا لم يُخفّض حركة الحجاج، بل زادت أعدادهم عدة أضعاف؛ بين عامى ١٩٠٥-١٩٠٩ زاد رحيل المسلمين شرقًا أكثر من ١٠ آلاف سنويًا. كانت هذه الحركة واسعة النطاق للناس وهى التي

---

[2] (Hassoun, Islam Ahmed: Western Migration and Settlement in the Gezira, Sudan Notes and Records, Vol. 33, No. 1, June 1952, p. 61.

ولمزيد من التفاصيل حول الأدلة التى جمعها أركل Arkell، **انظر**:

Arkell, A. J.: More about Fung Origins, Sudan Notes and Records, XXVII, 1946, pp. 87-97.

[3] (Davies, H. R. J.: Op. Cit., p. 222.

[4] (Hassoun, Islam Ahmed: Op. Cit., p. 61.

[5] (Davies, H. R. J.: Op. Cit., p. 223.

[٦] محمد محمود السريانى: رحلة الحج البرية من أقطار غربى أفريقيا ووسطها إلى مكة المكرمة، مجلة الدّارة، العددان ١، ٢، ١٤٢١هـ، ص ٢١٢.

[٧] لمزيد من التفاصيل حول دروب الحج ومسالكه عبر الصحراء الكبرى (الطريق الشمالى)، **انظر**:

سليمان عبد الغنى مالكى وسعد الدين أونال: تاريخ الحج من خلال الحجاج المعمرين، دراسة تاريخية ميدانية، مركز أبحاث الحج، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، (د.ت)، ص ص ٦٧-٧١، محمد محمود السريانى: مرجع سابق، ص ص ٢٠٧-٢١١.

أشاعت الحج على طول طريق السفانا، والتى بدأت التقليد الموجود فى غرب إفريقيا لفترة طويلة[٨]. وتعتبر الطرق البرية إلى مكة المكرمة، وخصوصًا تلك المارة عبر إفريقيا، أطول من تلك التي تؤدي إلى مراكز الحج الأخرى، ولعبت دورًا كبيرًا في الانتشار الثقافي والاقتصادي والاجتماعي[٩].

وقد ظل السودان يُشكّل مهجرًا للمسلمين من غرب إفريقيا لفترة طويلة من الزمن، لجملة أسباب أهمها موقع السودان على طريق الحج. فقد شكّل موقع السودان على ساحل البحر الأحمر وقريبًا من شبه الجزيرة العربية وامتداده إلى داخل القارة الإفريقية طريقًا مهمًا للحجاج المسافرين بريًا إلى مكة المكرمة من غرب إفريقيا. وقد اشتهر عن حجاج غرب إفريقيا أن معظمهم إنما يأتي إلى الحج راجلاً[١٠]، ولذلك فإن مسيرة الحاج ليقطع أرض السودان بهذه الطريقة قد تكلفه عدة سنوات يتعرض فيها لظروف الحياة العادية من مرض وموت وفقر وجوع وغيرها. ولذلك فإن عددًا من هؤلاء قد يقيم به إقامة دائمة قبل أن يدرك الحج، وقد تكون إقامته الدائمة بعد الحج وهو في طريق العودة إلى بلاده[١١]. وبالتالي بقى الكثيرون منهم لفترات ممتدة، واستقر آخرون بشكل دائم في السودان[١٢].

وربما كان حجاج غرب إفريقيا بسبب فقرهم يتبعون أرخص سبل المواصلات وأشقها وهو المشي على الأقدام، وطبيعي أنهم كانوا يحتاجون إلى فترات راحة، وأحيانا كانت تطول هذه الفترة وتستمر الإقامة لسنوات وإلى أجل غير مسمى[١٣]. وبالتالى كان الحج إلى مكة عاملاً رئيسًا أدى إلى وجود عدد كبير من أهالي غرب إفريقيا فى السودان. ويخبرنا بوركهارت Burkhardt، الذي زار شمالي السودان في بداية القرن التاسع عشر، أن بعض الحجاج سلك الطريق المباشر شرقًا بسبب الظروف غير المستقرة، بينما اختار أغلب الحجاج الأغنياء طريق درب الأربعين الأكثر صعوبة عبر الصحراء من دارفور إلى مصر[١٤].

وهكذا لم يميل العديد من حجاج غرب إفريقيا الذين نجحوا فى الوصول إلى مكة إلى العودة، بينما تخلى آخرون فى الطريق واستقروا في السودان. ويُحتمل أن يكون هناك عدد من المستوطنين من غرب إفريقيا من هذا النوع تعود إقامتهم إلى عهد الفونج. ذلك أن بيرا Bara، الواقعة عند النهاية الجنوبية لطريق

---

8) (Birks, J. S.: Overland Pilgrimage from West Africa to Mecca: An Achronism or Fashion? Geography, Vol. 62, No. 3, July 1977, p. 215.

9) (West African Pilgrims to Mecca, Geographical Review, Vol. 67, No. 4, Oct., 1977, p. 483.

(١٠) اصطلح أهل السودان على تسمية هذه الطريقة فى السفر الراجل (أى سيرًا على الأقدام) "تكرنة"، فيقولون فلان متكرن أى جاء يمشى راجلاً.

(١١) كمال محمد عبيد: العلاقات السودانية التشادية وأثرها فى نشر الثقافة العربية الاسلامية، مركز البحوث والدراسات الأفريقية، جامعة أفريقيا العالمية، الخرطوم، ٢٠٠١، ص ١٢٦،

Barbour, K. M.: Population Shifts and Changes in Sudan since 1898, Middle Eastern Studies, Vol. 2, No. 2, 1966, p. 112,

12) (McLoughlin, P. F. M.: Labour Market Conditions and Wages in the Three Towns 1900-1950, Sudan Notes and Records, Vol. 51, 1970, p. 110.

(١٣) عنايات الطحاوى: إقليم الخرطوم، دراسة جغرافية لأهم الظاهرات الطبيعية والبشرية، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، (د.ت)، ص ١٨٤.

14) (Davies, H. R. J.: Op. Cit., p. 224.

القافلة للنيل، فيها حيّ صغير من غرب إفريقيا يقال إنه يعود إلى تلك الفترة. وعلى أية حال، كان هناك قلة من أفارقة غرب إفريقيا استقروا فى السودان في وقت إنشاء السيادة الإنجليزية–المصرية عام ١٨٩٩. وأول رقم شامل كان ١٢ ألفاً في عام ١٩١٢، لكن هذا الرقم بلاشك أقل من التقدير[١٥].

كانت هجرات الغربيين[١٦] للحج تستغرق ما يزيد على عشر السنوات ذهابًا وإيابًا، وكانت هناك قلة من الحجاج الفقراء يلحقون بقوافل الأغنياء، ولكن غالبيتهم كانوا يرحلون معتمدين على أنفسهم ويسعون لرزقهم أثناء الطريق بالمشاركة في الأعمال التي يصادفونها سواء كانت زراعة أم رعيًا غالبًا في السودان، ليحصل على المال اللازم قبل عبوره البحر الأحمر إلى الديار المقدسة، ثم بعد عودته من مكة لتأمين رحلة العودة إلى غربى إفريقيا[١٧]. ولم ينتج عن ذلك عمليات استقرار كبيرة قبل القرن العشرين بسبب انتشار الأمراض وعدم استقرار الأمن. ولذلك لم تظهر عمليات الاستقرار التي قام بها الفلاتة أو الغربيون واضحة إلا فى أوائل القرن العشرين، وخاصة بعد عام ١٩٢٠، حينما بدأت المشروعات الزراعية وخاصة مشروع الجزيرة[١٨].

---

[15] Ibid.

لم يكن الحج هو العامل الوحيد الذى أدى إلى هجرة الغربيين شرقًا، فقد أدى الاضطراب السياسى الناجم عن الاستعمار الأوروبى لمنطقة غرب أفريقيا إلى الهجرة باتجاه الشرق. لمزيد من التفاصيل انظر:

Davies, H. R. J.: Op. Cit., p. 224.

[١٦] **الغربيون:** Westerners لفظ مستعمل فى السودان للدلالة على العناصر الوافدة من وسط وغرب الإقليم السوداني بمعناه الجغرافي (إقليم السفانا بمعناه الواسع فى إفريقيا)، ومن ثمّ فهو لا يدل على سلالة بعينها. وقد ظهرت هذه الهجرات بشكل واضح منذ أوائل هذا القرن وقُدّرت نسبة التدفق السنوي بين ١٠–٢٠ ألف سنويًا، تختلف بطبيعة الحال باختلاف الظروف الطبيعية والبشرية التي تسود الجهتين: المهاجر منها والمهاجر إليها. انظر: محمد عبد الغني سعودي: السودان، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٥، ص ٢٠٦.

[١٧] محمد محمود السرياني: مرجع سابق، ص ٢١٤.

[١٨] محمد عبد الغنى سعودى: مرجع سابق، ص ٢٠٦.

يُشكل **مشروع الجزيرة** جزءًا من إقليم الجزيرة، والذى يشغل المنطقة المثلثة بين النيل الأبيض والأزرق جنوب ملتقاهم فى الخرطوم. ومنطقة الجزيرة تقع أيضا على طريق الحجاج البرى من غرب أفريقيا إلى مكة المكرمة. وقد ربطت حركة البدو، والتجار، والحجاج، الجزيرة بمنطقة أوسع وكانت تقاطع طرق متعددة الأعراق. وتضاريسها مستوية تقريبًا ومميزة بانحدار خفيف من الجنوب إلى الشمال ومن الشرق إلى الغرب، والذى يُعد مهمًا لجاذبية نظام الرى.

وتعتبر كمية المطر ضئيلة ومتناقصة، وهناك ندرة فى الثروة المعدنية والنباتية، وتربتها من النوع الطينى القلوى المناسب لزراعة القطن. هذا المشروع الهائل بدأته بريطانيا، التى كانت تحكم السودان بالاشتراك مع مصر، فى عام ١٩١٣ لإمداد الطواحين البريطانية بالقطن. وقد بدأ المشروع العمل بعد بناء سد سنّار عام ١٩٢٥، وصُمم لخدمة منطقة من ١٠٠ ألف هكتار. وبعد توسعه فى الفترة ١٩٥٨–١٩٦٢، أصبح يغطى حوالى ٧٠٠ ألف هكتار من الأرض. ويُشكل المشروع ١٢% من مجموع المنطقة المزروعة فى السودان، وينتج ٧٥% من قطن البلاد، ومن ٣٠–٤٠% من الانتاج العالمى من القطن. **انظر:**

Misra, H. N.: Rural-urban Relations in Sudan: A Case Study of the Gezira Scheme, Ekisties, Vol. 50, No. 300, Urbanization and Social Change in the Arab World, 1983, p. 165, Bernal, Victoria: Colonial Moral Economy and Discipline of Development: the Gezira Scheme and "Modern" Sudan, Cultural Anthropology, Vol. 12, No. 4, 1997, p. 454.

ولمزيد من التفاصيل حول مشروع الجزيرة، **انظر:**

وقد بدأ حجم الحجاج من البلدان الإفريقية في الزيادة أواخر العشرينيات من القرن الماضى، وشكّل ٢٢% من العدد الإجمالي للحجاج في عام ١٩٢٩. وكان حجاج غرب إفريقيا يتحركون من السنغال وغينيا وسيراليون وليبريا باتجاه الشرق إلى كانو Kano في نيجيريا وإلى تشاد. ومن تشاد واصل الحجاج سفرتهم باتجاه الشرق حتى النيل أو أحد روافده، عندئذ مر الحجاج عبر السودان وارتيريا أو الحبشة والصومال إلى ساحل البحر الأحمر، حيث كانوا يعبرون البحر إلى الحجاز أو عسير أو اليمن اعتمادًا على اتجاه الرياح[١٩].

ويُضاف إلى العامل الدينى المتمثل فى الحج إلى بيت الله الحرام في مكة المكرمة وأثره في هجرة أهالي غرب إفريقيا واستقرار جزء منهم في السودان، عامل آخر مرتبط به وهو **العامل الاقتصادي**. فالعلاقة الوثيقة بين هذين الدافعين تعتبر علاقة طبيعية. فمعظم المهاجرين كانوا فقراء، وبالتالي عندما قرروا الذهاب إلى الحج أدركوا كمية المال الهائلة المطلوبة لتغطية نفقاتهم طوال رحلتهم الطويلة، وهنا يأتي العنصر الاقتصادي. وعلى ما يبدو أنهم فضلوا جمع المال الضروري في طريقهم، لأنهم عبروا قارتهم إلى آسيا مما كسر رتابة السفر، وساعد الحاج على تكريس أى فائض فى دخله لمهمته المقدسة بدلاً من الراحة والترف[٢٠].

وبالتالى كان البعض من الغربيين وهم في المرور بين أوطانهم في غرب إفريقيا ومكة المكرمة، يستخدمون العمل في مشروع الجزيرة للحصول على المال اللازم للسفر[٢١]. كما جذب آخرين، والكثير منهم في طريق الحج، فرص العمل بالأجر والأرض الفارغة الصالحة للزراعة خصوصًا قرب القضارف[٢٢].

وقد أشار أحد الباحثين إلى أن الاستغلال المتزايد لطبقة الفلاحين خلال الفترة الاستعمارية، كان القاعدة وراء القرار الأَوليّ للحج والهجرة في النهاية بأعداد كبيرة للهوسا من نيجيريا إلى السودان، وربما كانت مغادرة نيجيريا أقوى من الوصول إلى مكة[٢٣]. وأشار آخر إلى أن بريطانيا، لضمان إمداد وفير من العمالة الموسمية لمشروع الجزيرة، شجعت استيطان أعداد كبيرة من مهاجري غرب إفريقيا المسلمين فى منطقة الجزيرة للإمداد بالعمالة الزراعية[٢٤].

Beshir, M. O.: the Gezira Scheme: An Experiment in Socio-Economic Development, Civilizations, Vol. 11, No. 1, 1961, pp. 63-67, Gaitskell, Arthur: the Gezira Scheme, Journal of the Royal Society of Arts, Vol. 104, No. 4966, 1955, pp. 67-86.

19) (Shair, I. M. and Karan, P. P.: Geography of Islamic Pilgrimage, Geojournal, Vol. 3, No. 6, Natural Resources Development in the Tropics, 1979, p. 600.

20) (Hassoun, Islam Ahmed: Op. Cit., p. 65.

21) (McLoughlin, Peter F. M.: the Sudan's Gezira Scheme: An Economic Profile, Social and Economic Studies, Vol. 12, No. 2, 1963, p. 184.

22) (McLoughlin, P. F. M.: Labour Market Conditions, Op. Cit., p. 106.

23) (Duffield, Mark: Change among West African Settlers in Northern Sudan, Review of African Political Economy, No. 26, Sudan, 1983, p. 47.

24) (O'Brien, Jay: the Formation of the Agricultural Labour Force in Sudan, Review of African Political Economy, No. 26, Sudan, Jul., 1983, p. 17.

أضف إلى ذلك، أن من العناصر الغربية وغالبيتها فقيرة من استهواها البقاء في السودان والعمل فى المشروعات الزراعية وتناسي الغرض الأصلي وهو الحج، أو طاب له العيش كما أسلفنا بعد العودة من الحج فاستقر في السودان، خاصة وقد وجدوا من السلطات الحاكمة كل تشجيع. وكان في قيام هذه المشروعات في السودان وحسن المعاملة التي وجدها المهاجرون ما أغرى فريقًا آخر فهاجر إلى السودان بغية العمل وجمع المال، ومن هؤلاء من استقر نهائيًا في السودان فلم يعد إلى موطنه الأصلي(٢٥).

وقد ساعدت الظروف الجغرافية على هذه الحركة، ففي نفس العروض نجد المطر في الغرب أغزر منه في الشرق، وتزداد فصليته كلما اتجهنا غربًا، كما أن الأمطار أكثر تبكيرًا في غرب الإقليم السوداني. وقد أدى إلى تركز المطر في فترة أقصر إلى تعريض التربة للتعرية في الغرب بصورة أعظم منها في الشرق، مما عرّض السكان للمجاعات في الغرب أكثر من الشرق. وبالتالي كان من الطبيعى انحدار السكان من الغرب إلى الشرق(٢٦).

فقد جُذب الغربيون إلى الأجزاء غير المشغولة نسبيًا من نطاق السفانا في السودان، ومدى التنمية الاقتصادية للبلاد، خصوصًا زيادة إنتاج القطن مع الحاجة المصاحبة للعمالة. وبالنسبة للنيجيريين، كان الحج أكثر جاذبية مع إمكانية تحسين ظروفهم المادية. أما بالنسبة للكثير من التشاديين، كانت الظروف الاقتصادية الجيدة هي الجاذبية الحقيقية، ورغم ذلك شكّل الحج عاملاً مفيداً في أغلب الأحيان(٢٧). وإذا رسمنا رسمًا بيانيًا لتصوير قوة الدافع الديني، يصبح في المقدمة مع شمال نيجيريا وفي مرتبة تالية مع دارفور في الجانب الآخر. خط الرسم البياني يفترض خلاصة مقعرة لدرجة كبيرة بينما يهبط بحدة في الربع الأول الذي يمثل نيجيريا وجوارها مباشرة، وينحدر بلطف نحو الصغر أو قريب جدًا منه في القطاع السودانى(٢٨).

وإذا كان الحج هو الدافع الوحيد لهجرة النيجيريين، فإن المهاجرين من المناطق الاستوائية الفرنسية وإلى درجة أقل السودانيون الغربيون، كانوا مسرورين بعمل ذلك، وإن كانت نسبة صغيرة من عددهم هي التي تزور مكة حقيقةً. وهناك ظاهرة أخرى ربما تُذكر كدليل على قوة الترتيب والتحفيز الديني بين النيجيريين مقارنة بالآخرين، هو أن كل الذكور النيجيريين المتزوجين كانوا يجلبون عوائلهم معهم. قد يكون هذا بسبب الوقت الأطول الذي كان يستغرقه النيجيري أثناء الرحلة، لكنه بلا شك يتوافق مع مبادئه الأخلاقية الدينية الرفيعة(٢٩).

وربما تكون السلطات الاستعمارية الانجليزية قد دأبت، منذ كان لها النفوذ الأكبر فى السودان، على جلب الأيدى العاملة من غرب السودان بدلاً من استخدام السودانيين، لإبعاد المعرفة والتوجيه المهنى عن السودانيين من جهة، وإضعاف وعيهم الاقتصادى والقومى من جهة أخرى. **انظر**: عنايات الطحاوى: مرجع سابق، ص ١٨٤.

(٢٥) محمد عبد الغنى سعودى: مرجع سابق، ص ٢٠٦، ٢٠٧.

(٢٦) نفسه، ص ٢٠٧.

27) (Davies, H. R. J.: Op. Cit., p. 225.

28) (Hassoun, Islam Ahmed: Op. Cit., p. 66.

29) (Ibid.

وبالتالي يمكن القول إن الحركة الطبيعية عبر حزام السهل العشبي (السفانا) المجاور للصحراء الكبرى، المعتمد على المناخ، والمطر، والحافز إلى التوسع إلى الأراضي الزراعية الجديدة، أصبح مرتبطاً بالحافز الديني في الحج إلي مكة المكرمة. ومنذ نهاية القرن التاسع عشر، سمحت الظروف السلمية والإلغاء التدريجي للعبودية بالمرور إلى مكة عبر السودان، وكان لابد للحاج من دخل لرحلته إلى مكة، فاستخدم انتاج المحصول النقدي وعمل بالأجر للحصول عليه[٣٠].

وتشير بعض التفسيرات المتعلقة باستقرار الغربيين في السودان إلى قلة المال، وضعف الحصول على وثائق السفر لعبور البحر الأحمر إلى السعودية، والمسؤولية العائلية أو الدخول في شبكة من العلاقات المتبادلة مع المسلمين الآخرين. مثل هذه العوامل منعت الحجاج من التحرك بحرية من مكان لآخر عندما استقروا لبعض الوقت في السودان، وأصبحو مؤسسين كأعضاء لمجتمع الحج المحلي[٣١].

ومن الواضح من التقديرات المختلفة للسكان الغربيين في الأجزاء المختلفة من البلاد أن أعدادهم قد تضاعفت بشكل كبير من العشرينيات إلى مطلع خمسينيات القرن الماضي. فقد تضاعفت أعداد النيجيريين والمناطق الاستوائية الفرنسية في كسلا من ٢٥٠٠ نسمة سنة ١٩٢٤ إلى ما بين ٧-١٠ آلاف نسمة سنة ١٩٣٤. وفي الجزيرة من ٤-١٠ آلاف نسمة إلى ٦٥ ألف سنة ١٩٥٠. ولاشك أن الهجرة الأخيرة قد تحسنت كثيرًا بافتتاح المشروعات الزراعية المختلفة وانفتاح العديد من المناطق للزراعة، والتي كانت مخرّبة في الماضي أو استُعملت فقط للنشاط البدوي. هذا التطور السريع في الاقتصاد الزراعي للسودان تطلب عمالة، حيث فشل السكان المحليون أو لم يُقنعوا بتقديمها بسرعة كافية. تقارير هذه المتطلبات لانتظار "الثروة والحج" جعلت من السهل السفر السريع عبر القارة إلى الغرب والاستجابة على شكل فيضان متزايد من المهاجرين. فقد تدفق عشرات الآلاف إما كمستوطنين ومستفيدين دائمين من الأرض، أو كعمالة متجولة تكسب قوتها بالعمل في هذه المنطقة في فصل واحد من السنة، حسب قانون العرض والطلب[٣٢].

وقد ظهر من أرقام التعداد الأول في السودان أن أهالي غرب إفريقيا مثلوا أعلى نسبة من الأجانب في السودان، حيث قدّرهم الإحصاء بأكثر من نصف مليون نسمة (٦٦٣.٠٠٠) منهم ١٦٥.٠٠٠ أجانب صرف، ٤٢.٠٠٠ سُجلوا كسودانيين لكن من أصل أجنبي، ٤٥٦.٠٠٠ يدعون الجنسية السودانية دون إثبات[٣٣]. وأكثر المديريات من حيث عدد الأجانب هي مديريات نطاق السفانا؛ حيث إن هذا النطاق هو أكثر النطاقات عمرانًا وأكثرها غنى فضلاً عن أن معظم المهاجرين من غرب إفريقيا.

---

30) (McLoughlin, Peter F. M.: the Sudan's Gezira Scheme: Op. Cit., p. 185.

31) (Holy, Ladislav: Bulletin of the School of Oriental and African Studies, University of London, Vol. 59, No. 3, 1996, p. 617.

32) (Hassoun, Islam Ahmed: Op. Cit., p. 67.

(٣٣) محمد عبد الغنى سعودى: مرجع سابق، ص ٢٠٥.

على أية حال، يمكن القول إن تقليد الهجرة وُجد دائمًا بين القبائل المتعددة والممتدة إلى الغرب قبل الاحتلال الأوروبى. لقد زاد حزام الهجرة دائمًا، بسبب تدفق الاسلام، عن طريق الحج البري الطبيعي الممتد من غرب إفريقيا الإسلامية إلى الأماكن المقدسة[٣٤].

ثالثًا- استيطان الغربيين فى منطقة الجزيرة:

لما كان معظم المغادرين إلى رحلة الحج يصطحبون معهم عائلاتهم، فقد استقر جزء كبير من هؤلاء فى السودان مفضلاً عدم العودة إلى غربى إفريقيا. وقد انتشر هؤلاء في السودان في مناطق السفانا المماثلة لمناطقهم الأصلية في أوطانهم. وقد ساعد على استقرار هؤلاء في منطقة السفانا السودانية، وجود مناطق الانتاج الزراعي، خاصة مناطق زراعة القطن في مشروع الجزيرة أو زراعة الحبوب في القضارف، حيث عمل هؤلاء عمالاً موسميين أو دائمين في هذه المشاريع الزراعية[٣٥].

وبالتالي استقبل إقليم الجزيرة تدفقه من المهاجرين بشكل كلى تقريبًا بعد افتتاح المشروع للتنمية الزراعية. وما عدا بعض القرى فى أقصى الجنوب، لم يكن هناك استقرار للغربيين في المنطقة. وقد أُسس هؤلاء جزئيًا من قبل السودانيين الغربيين في ظل المهدية، وجزئيًا من قبل النيجيريين لكونهم في طريق الحج. وبنفس الطريقة أسس النيجيريون عددًا صغيرًا من المستوطنات النهرية شبه الدائمة على طول ضفاف النيل الأزرق التي يمكن أن تعتبر بالنسبة لكل المقاصد والأغراض جزء من استيطانهم الرئيسى (منطقة الفونج) في الجنوب والجنوب الشرقي[٣٦].

ومع بداية المشروع حدث تدفق كبير؛ حيث كانت العمالة مطلوبة للنشاطات المختلفة في افتتاح المشروع. وفي هذا الصدد يُقال أنه عند قيام المشروع "كان عدد السكان كثيف إلى حد لا بأس به في شرق وسط الجزيرة، ويُعتقد أنه كان كافيًا للمشروع إلى حد كبير، مع الاعتراف بأن هذا العامل قد يحدد اللامتدادات اللاحقة". في كل الأحوال، حتى فى المرحلة التجريبية (مع مضخة الري)، بدأ الغربيون في الهجرة والاستقرار في الجزيرة عمومًا في أعداد متزايدة على نحو ثابت. فكل امتداد للمنطقة المروية جلب معه موجه من المهاجرين والمستوطنين[٣٧]. ولسوء الحظ لا توجد أرقام شاملة تساعد على تتبع التدفق الغربي من بداية المشروع من حيث الإعداد والحقائق.

ولعل التقديرات التالية الموجودة في التقارير الرسمية قد تعطي فكرة عن سرعة التسلل الغربي، وقد لا تكون بعيدة عن الحقيقة:

---

34) (Hassoun, Islam Ahmed: Op. Cit., p. 62.

(٣٥) محمد محمود السريانى: مرجع سابق، ص ٢١٧.

36) (Ibid, p. 83, 84.

37) (Hassoun, Islam Ahmed: Op. Cit., p. 84.

السنة	عدد السكان الغربيين
١٩١٩	٣٠٠ نسمة
١٩٢٤	٤٠٠٠ نسمة
١٩٢٩	١٥.٠٠٠ (منهم ٩ آلاف عمالة متجولة)
١٩٣٦	٢٨٢٥٧ (منهم ٢٠ ألف عمالة متجولة)
١٩٤٦	٥٥٢٦٨ (منهم ٣٧ ألف عمالة متجولة)

بيانات الجدول نقلاً عن: Hassoun, Islam Ahmed: Op. Cit., p. 84.

وبحلول عام ١٩٢٩ وُجد الغربيون بالأساس جنوب بركات Barakat، خصوصًا في الحوش Hosh والحاج عبد الله Hag Abdullah. ومن الجدير بالملاحظة أن يعلن تقرير أن الغربيين من المناطق الاستوائية الفرنسية من غير المحتمل أن يكونوا موجودين في الجزيرة قبل المشروع، وظهروا يحملون نسبة كبيرة من الإيجارات أعلى من النيجيريين. وطبقًا لتقرير كراوفورد عام ١٩٢٩، كان هناك حوالي ٥٣٧٤ مستوطن، و١٦٤٣٠ غير مستقر في الجزيرة، على النحو التالي:

	مستوطن	غير مستوطن
النيجيريون	٤٤٦٧	١١٥٧
المناطق الاستوائية الفرنسية Borgu	٧٦٢	٧٠١٤
آخرون (السودانيون الغربيون)	١٤٥	٨٢٥٩
اجمالي	٥٣٧٤	١٦٤٣٠
اجمالى المستوطنين وغير المستوطنين	٢١٨٠٤	

بيانات الجدول نقلاً عن: Hassoun, Islam Ahmed: Op. Cit., p. 85.

أشار التقرير إلى أن غير المستقرين "الآخرين Others" أقل من ١٠٠٠، جاءوا من السودان الفرنسي، وحوالي ٤٠٠٠ من كردفان ودارفور. مع ذلك فإن التعارض هو السمة الرئيسية لهذه الإحصاءات عندما تتعلق بنسبة "المستقرين" إلى "غير المستقرين"، والاجمالي قد يكون أقرب إلى الحقيقة. هذا التعارض ربما يُدحض إذا عرفنا أن البورقو Borgu "يُعتقد عمومًا أنهم لا يأتون بنسائهم ولا يجدون قرى"[٣٨]. وبالتالي استمر التسلل والاستيطان الغربي في السودان عموماً وفي منطقة الجزيرة على وجه الخصوص.

---

38) Hassoun, Islam Ahmed: Op. Cit., p. 85.

وقد وقع غربيو الجزيرة خلال صنفين هما: العمال Labourers والمستأجرون Tenants أو ملاك الأراضى Landholders.

والجدول التالي يبين عدد الغربيين في الجزيرة ونسبتهم حسب النوع في مطلع الستينيات

م	نوع الغربي	العدد	% من إجمالي سكان الجزيرة	% من إجمالي سكان السودان
١	قبائل غربي دارفور	١٠٧٥٣	%١١	%١.١٦
٢	قبائل إفريقيا الاستوائية الفرنسية	١٤٤٣٣	%١٤.٨٠	%١٥.١٠
٣	قبائل نيجيرية	٣١٠٦٢	%٣١.٩٠	%١٠.٣٧
٤	مجموعة غير معروفة من الغربيين	٢٠٥٧٤	%٢١.١٠	%٣٤.١٠
٥	سودانيون من أصول غربية	١٣٠٨	%١.٣٤	%٣.٤٧
٦	غربيون بهوية غير سودانية	١٨٥١٣	%١٩	%١١.٨٥
٧	الكونغو البلجيكي	٥٥٨	%٠.٥٧	%٨٦.٢٥
	المجموع	٩٧٢٠١	%١٠٠	%٦.١٦

المصدر:

McLoughlin, Peter F. M.: the Sudan's Gezira Scheme, Op. Cit., p. 186.

رابعًا- الأهمية الاقتصادية للغربيين في مشروع الجزيرة:

كان للحجاج الغربيين الذين استقر بهم المقام في منطقة الجزيرة بالسودان أهمية اقتصادية كبيرة للمشروعات الزراعية، خاصة مشروع قطن الجزيرة، كعمال وكمستأجرين على النحو التالى:

١- الغربيون كعمال:

إذا كان متوسط إنتاج أفارقة غرب إفريقيا مثل متوسط إنتاج السودانيين، فإن وجودهم كان يساوي تقريبًا ٨٢٤ مليون جنيه سنويًا. فهناك أكثر من دليل يبين أنهم في الحقيقة أكثر إنتاجًا من جيرانهم السودانيين

في بعض المجالات، وفي نفس الوقت لديهم الرغبة في مباشرة بعض المهام الحيوية التي كان يزدريها السودانيون الشماليون[٣٩].

لم يُسحب المهاجرون الغربيون كالعبيد مثل زنوج الولايات الجنوبية في الولايات المتحدة الأمريكية، ولا تم استيرادهم بشكل منظم مثل هنود جنوب أفريقيا، إنما كانت حركتهم في سياقها الطبيعى.وفي بادئ الأمر نظر شعب الجزيرة للعمال الغربيين ببعض الاستياء. ففي تسع حالات من عشرة كان الجواب لأفضل عامل هو "العربي"، لكن قبل انتهاء العشرينيات من القرن العشرين كان الموقف قد تغير وفُضّل "الغربي" بالتأكيد من قبل أغلب المفتشين والمستأجرين في الجزيرة بالنسبة لكل زملائهم العمالة من الجنسيات الأخرى[٤٠].

ويعتبر العنصر الزراعي المقيم بين أفارقة غرب إفريقيا ذا أهمية اقتصادية للسودان؛ فقد أثنى كثير من مسؤولي الحكومة السودانية على صناعتهم وقدرتهم على العمل الشاق. كتب حاكم ولاية الجزيرة (ولاية النيل الأزرق) عام ١٩٢٩، أن عملهم كان ضروريًا لنجاح مشروع قطن الجزيرة المروي الذي بدأ عام ١٩٢٥. وبعد الحرب العالمية الثانية قدّم مفوض منطقة سنجة Senga في النيل الأزرق تقريرًا عن مقاطعته، صرّح فيه بأن أفارقة غرب إفريقيا والسودانيين من إقليم دارفور كانوا الزراعيين الأكثر دأبًا في ظل سلطته. وقد اعترف عرب شمالي السودان بهذا، حيث أشاروا لأفارقة غرب إفريقيا بأنهم "يعملون دائمًا". فبدون أفارقة غرب إفريقيا لم يكن لمشروع الجزيرة أن يعمل بنجاح خلال فترة الكساد[٤١].

لقد ساهم مواطنو الجزيرة أنفسهم عموما بحوالي نصف العمالة المؤقتة المطلوبة تقريبا للجني أو الالتقاط، وباقي متطلبات العمل يُشَارك فيه عرب النيل الأبيض[٤٢] والمهاجرون الغربيون. ويعتبر العامل الغربي لدرجة كبيرة نشيطاً أكثر من العامل في النيل الأزرق أو الأبيض. فالعربي عادة لا يستمر في العمل في الحقل بعد العاشرة أو الحادية عشرة صباحًا، بينما استمر الغربي في الجني أو الجمع حتى الثانية أو الثالثة بعد الظهر. وعندما تكون الأمطار أثقل من العادي – وهذا ليس نادرًا خصوصًا في جنوب الجزيرة – تميل الأعشاب الضارة إلى النمو بكثافة وسرعة، ومالم يتم استئصالها بسرعة فقد تكون قاتلة لمحصول القطن. وفي مثل هذه الحالة يكون العمل الشاق ضروريًا لصد نمو الأعشاب الضارة قبل فوات الأوان، وهنا يتميز الغربي بصفة عامة والنيجيري بصفة خاصة؛ حيث يستعمل بكفاءة عالية أدواته المحلية لإزالة الأعشاب – الكادانكا kadanka، وهي أداة أكثر فاعلية من المعزقة المحلية، المعروفة بـ malod. والكادانكا kadanka تحتاج إلى مهارة ووضع معين في استعمالها، وهو الأمر الذي يجده العربى مملاً جدًا لتعلمه ومباشرته[٤٣].

---

39) (Davies, H. R. J.: Op. Cit., p. 226.

40) (Hassoun, Islam Ahmed: Op. Cit., p. 86.

41) (Davies, H. R. J.: Op. Cit., p. 227.

(٤٢) "**عرب النيل الأبيض**": المقصود بهم مجموعة صغيرة من القبائل التى تعيش بشكل رئيسى فى المنطقة بين النيل الأبيض والحدود الغربية للمشروع. وهؤلاء الناس كانوا يعيشون حياة شبه بدوية.

43) (Hassoun, Islam Ahmed: Op. Cit., p. 87.

وقد كان العمل في القنوات لإزالة الأعشاب وظيفة أخرى كرهها العرب، بينما كان الغربيون مستعدين لها. فقد كانت تتطلب الانحناء لساعات والعمل تحت الشمس القائظة حتى الساعة الثانية بعد الظهر، طبقًا لتعليمات قسم الري السوداني. أضف إلى ذلك، كفاءة الغربي المتفوقة لم يخفق في إظهارها وكان مُفضلاً في المحالج ginneries أيضا. وفي الحقيقة نوعية وجودة العامل الغربي كانت دائما واضحة، حيث كان أكثر عناية وصلابة في مجال العمل الذي يُدعى إليه. هذه النوعيات في الغربي ربما تستحق، بعيدًا عن أصول البنية الطبيعية الجيدة عموما وتقليد الغياب عن العمل بين العرب، قلقه للكسب في أقصر وقت ممكن مبلغ مرضى من المال يمكنّه من المضي للحج، أو للمرور إلى الوطن، أو للزواج وبناء نفسه أو الاستقرار كمزارع مستقل في مكان آخر من البلاد. حتى الفكرة التي تقع تحت هذه الحوافز كانت غائبة بشكل عملي عند العربي. فهو معروف دائما كشخص ليس لديه حماس على الإطلاق للعمل بأجر مالم يكن في حاجة ملحة للمال، وهو متلهف لكسب ذلك المال بأسهل طريقة حتى بالتضحية ببعض الربح الإضافي الذي يمكن أن يكسبه بمهمة مرهقة بعض الشيء عن الأخرى. وقد لخص كراوفورد ذلك في تقريره سنة ١٩٢٩ بقوله "الغربي يعمل لأنه يريد المال، والعربي يعمل فقط عندما يكون جائعًا، وبالتالي فالجوع هو الذي يجذبه وليس الأجر الذي يكسبه"[٤٤].

أضف إلى ذلك الحقيقة التي ربما تم استنتاجها وهي أن الناتج لكل رأس ولكل ساعة بين الغربيين عمومًا أعلى لدرجة كبيرة عنها بين العرب. وقد استطاع الغربيون تخفيض مستوى المعيشة بين كل من عمال الإقليم والمستأجرين المحليين. فبسبب مستوى معيشتهم المنخفضة أو الطبيعة المحدودة لمتطلباتهم، كانوا يقبلون أجورًا رخيصة لعملهم. وقد ساعد هذا في النهاية على إنتاج محصول القطن بأسعار يمكن أن تنافس في الأسواق العالمية[٤٥].

وقد بُذلت جهود مختلفة لفرض سيطرة أكثر على الهجرة الغربية في إقليم الجزيرة وتوجيهها إلى الأجزاء الأكثر احتياجًا في المشروع، وخاصة قرب طريق السكة الحديد في كردفان أو حال عودتهم من مكة[٤٦]. هذه الممارسة كانت مستعملة لتقديم إمدادات إضافية من العمالة المطلوبة للالتقاط أو إزالة الأعشاب خصوصًا عندما يكون المحصول وفيراً جدًا، أو أن تكون الأعشاب الضارة ثقيلة جدًا على العمالة المحلية للتعامل معها قبل التأخير[٤٧].

لقد تعلم العامل الغربي المؤقت western casual labour أن يجعل نفسه متاحًا متى طُلب، وذلك من خلال الحضور الدائم في منطقة المشروع. فقد استقرت الكثير من العائلات الغربية في النهاية في قرى المشروع أو في أحياء منفصلة في القرى والمدن، وكانوا جاهزين ليُستأجروا عند الحاجة إليهم.

---

[٤٤] شريف محمد شريف: أرض الجزيرة بالسودان، دراسة اقتصادية، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٦٠، ص ١٥٠.

[45] Hassoun, Islam Ahmed: Op. Cit., p. 88.

[٤٦] يعتبر وقت الحج ثابت طبقًا للتقويم الهجرى، ويتفاوت بعض الشئ من سنة إلى أخرى طبقًا للسنة القبطية. وبالتالى بينما كان الحجاج يعودون لبضع سنوات من مكة المكرمة أثناء فصل الالتقاط، ووصلوا فى سنوات أخرى أوائل شهر أكتوبر، بمعنى أنهم وصلوا مبكرًا ثلاثة شهور.

[47] Hassoun, Islam Ahmed: Op. Cit., p. 90.

وتتزامن فترة جني أو التقاط القطن في الجزيرة (من يناير إلى أبريل) عمليًا مع موسم كساد حبوب زراعة المطر في وسط السودان. وبالتالي بحلول شهر ديسمبر وأوائل شهر يناير يكون قد تم الانتهاء من حصاد هذه الحبوب، الذرة بشكل رئيسي، فتحمل القطارات العمال الغربيين من مناطق الفونج والقضارف من على طول المنطقة الداخلية لسكة حديد كسلا–الأُبيّض، لتتدفق إلى الجزيرة. وإذا لم يمكن الحصول على إحصاء لهؤلاء المسافرين الغربيين، فإن الحقيقة المعروفة جيدًا أن موظفي سكك حديد السودان ومسافري الدرجة الرابعة الآخرين كانوا يواجهون احتشادًا عظيمًا بشكل ثابت من المسافرين الغربيين المتجهين إلى الجزيرة فى تلك الفترة. وهؤلاء في الغالب كانوا عمالاً مؤقتين متجولين، بالرغم من أن نسبة صغيرة منهم كانوا في حيازة فعلية للأرض المزروعة على الأمطار[٤٨].

وقبل أن يبدأ الفصل الممطر يكون جمع القطن وتنظيف الحقل اللاحق له قد انتهى، ومن ثمَّ خلال أواخر مارس–أبريل وأوائل يونيو تنخفض الحاجة إلى العمالة تدريجيًا ويعود المهاجرون إلى مناطق زراعة الأمطار لتلبية متطلبات العمل لتنظيف الأرض وبذر المحصول الجديد. فقد كانت الحاجة إليهم هناك عمومًا طوال مدة الزراعة ويحضرون الحصاد في نوفمبر وديسمبر وأوائل يناير، وقبل الانتقال مرة أخرى إلى الجزيرة يحدث تدفق بسيط خلال فصل إزالة الأعشاب في الجزيرة، خصوصًا في مناطق التصريف السيئ في الكتل الواقعة باتجاه الجنوب حيث الأمطار الثقيلة والطلب على العامل الغربى ذي الأجور العالية[٤٩].

وبالتالي يعتبر الغربى اقتنائياً أكثر بكثير من السودانيين الشماليين. وليزيد دخله يتحرك بين عدة أسواق عمالة ومحاصيل نقدية. إن الغربى يعتبر الأكثر كفاءة وعضواً موثوقاً به فى قوة العمل الإفريقية للسودان. ومع ذلك بالنسبة للأعداد يقدم ربع الإمداد بعمل الأجر في الجزيرة، ويؤدي المهام التي لا يستطيع السودانيون عادة أو لا يحاولون القيام بها مثل تنظيف القناة، الذي يُعد ضروريًا لتقدم المشروع[٥٠].

وقد استخدمت سلطات مشروع الجزيرة عددًا كبيرًا من الغربيين للحلج وعمل القنوات. كانت ساعات عملهم (٦ صباحًا–٢ مساءً) وأجورهم تحددها التعليمات. ومع ذلك فإن أغلب العمال المؤقتين المستخدمين من قبل قسم الري كانوا يجيئون ويذهبون، في متوسط أو معدل من ٢٥٠٠ إلى ٣٠٠٠ موظف بشكل يومي على مدار السنة في أجزاء مختلفة من الجزيرة. من ذلك العدد يُقدّر أن ٦٠% من هؤلاء كانوا من المناطق الاستوائية الفرنسية، ١٥% سودانيين غربيين، ١٠% نيجيريين، والباقي سودانيين آخرين. ومن أولئك المستخدمين سنويًا فى محالج القطن فى قرشي Ghorashi ومرنجان Meringan (٢٤٠٠) حوالي ٩٠% غربيين. وقد كانت المحالج تعمل لشهور قليلة – أربعة أشهر – خلال وبعد فصل الالتقاط مباشرة، ثم تُغلق حتى الفصل التالي[٥١].

---

[٤٨] شريف محمد شريف: مرجع سابق، ص ١٥٠.

[49] Hassoun, Islam Ahmed: Op. Cit., p. 92.

[50] McLoughlin, Peter F. M.: the Sudan's Gezira Scheme, Op. Cit., p. 186.

[51] Hassoun, Islam Ahmed: Op. Cit., p. 94.

لقد لعب الغربيون دورًا مهمًا ليس فقط في إنتاج القطن في الحقول، بل أيضا في معالجته. فإجمالي القوة العاملة المستخدمة من قبل ثمانية مجالس محالج بالجزيرة بالسودان Sudan Gezira Board's ginneries، كانت تزيد على ٤٦٠٠ عامل، ٩٠% منهم كانوا غربيين. بل إن بعض العمال كانوا يعيشون بشكل دائم في معسكرات يديرها مجلس الجزيرة Sudan Gezira Board، لكن معظمهم كان مطلوبًا فقط من يناير إلى يونيو، وكان يأتي من الأُبيّض والقضارف. كان العديد من هؤلاء عمالة شبه ماهرة، وجاءوا سنة بعد أخرى، ونتيجة لذلك وجد البعض من المناسب الاستقرار في منطقة الجزيرة وخاصة قرب ود مدني Wad Medani. لقد استخدمت وزارة الري في السودان Sudan Irrigation Department ثلاثة آلاف عامل للمحافظة على القنوات في الجزيرة الأصلية صافية من العشب الضار والغرين وفي حالة جيدة، ٧٠% منهم كانوا غربيين[٥٢].

ويمكن إيجاز أهمية الغربيين لمشروع الجزيرة على النحو التالي:

- كانوا يقدمون ٢٥% من القوى العاملة في الحقول.
- ٩٠% من القوة العاملة المستخدمة فى المحالج.
- ٧٠% من عمالة صيانة القنوات.

أما أهميتهم بالنسبة لاقتصاد البلاد ككل في هذا القطاع يبينها حقيقة أن ٥٥.٦% من صادرات قطن السودان سنة ١٩٦٢ جاءت من منطقة الجزيرة بما فيها امتداد المناقل Manaqil Extension، والقطن نفسه قدّر بحوالى ٦٥.٤% من صادرات البلاد من حيث القيمة.

٢- الغربيون كمستأجرين:

كان المهاجرون الغربيون يعيشون في أوطانهم على شكل أو آخر من الزراعة المستقرة، وكان عندهم تقليد قديم من الزراعة، لذا لا عجب في أن نجد حب الامتلاك لقطعة من الأرض يمكن أن يزرعها بمفرده أو مع عائلته مسألة فطرية في المهاجر الغربي. وبعيدًا عن الاستقلال في شغل الأرض والربح الذي قد يتمتع به، يبدو أن المهاجر الغربى لديه ميل طبيعى للحصول على أرض خاصة به متى كان ذلك ممكنًا. أغلب العمال المتجولين في الجزيرة كانوا يفضلون إلى حد بعيد قضاء السنة يزرعون أرضهم لينفقونها في العمل المؤقت، بشرط ألا تتجاوز إقامتهم في البقعة اثني عشر شهرًا. ومع ذلك، شروط امتلاك الأرض في الجزيرة منعت عمليًا الجانب الفطرى لهذا الميل، لأن الأرباح العالية والمستمرة للايجارات والحياة المريحة والمزدهرة نسبيًا للمستأجرين، جعلت الطموح لأن يكون مالك للأرض في المشروع شائعاً وعاماً بين كل سكان المنطقة[٥٣].

وحتى في السنوات الأولى للمشروع، حصل الغربيون على الإيجارات إما كنتيجة للسياسة المعتمدة من ناحية سلطات المشروع أو بسبب قلة السكان المحليين أو كليهما معًا، واستمروا في تقديم نسبة كبيرة من القوة العاملة، خصوصًا عند العمل الثقيل في إزالة الأعشاب الضارة وجمع القطن[٥٤].

---

52) (Davies, H. R. J.: Op. Cit., p. 228-229.
53) (Hassoun, Islam Ahmed: Op. Cit., p. 96.
54) (Barbour, K. M.: Op. Cit., p. 112.

وعند البحث عن أسباب ظهور الغربيين كمستأجرين في الجزيرة، فإن الحقيقة الأساسية التي تؤخذ في الاعتبار هو أنه بحلول ذلك الوقت (١٩٣٠-١٩٣٥) كان المستأجرون المحليون، خصوصًا أولئك المسحوبين من غرب منطقة المشروع، لم يكونوا قد تكيفوا مع الشكل الجديد للاقتصاد الزراعي إلى الدرجة التي تلتزم بالشكل الجديد وتنسى القديم. فانتظار الأرض لتُزرع بالدخن على المطر، استمر في الجزيرة خارج منطقة المشروع. لذا عندما انخفضت أسعار القطن فى الأسواق العالمية وانخفضت أرباح المستأجر في المشروع بالتالي، كان من الشائع أن ترى المستأجرين العرب يتركون أملاكهم ويندفعون بعيدًا عن المشروع ليستأنفوا مهنهم القديمة في الزراعة على المطر. وفى أثناء ذلك، كان لابد أن يستمر المشروع وزراعة القطن. ليس هذا فقط، لكن نفس الفترة شهدت توسعًا آخر للمشروع، حيث افتُتحت أربع كتل أخرى. ومع ذلك، كان المهاجرون خصوصًا من المناطق الاستوائية الفرنسية، مستعدين وراغبين في شغل الأماكن الشاغرة للمستأجرين التي تجنبها مواطن الجزيرة. علاوة على ذلك، سياسة سلطات المشروع في ذلك الوقت سيطرت عليها المصالح الاقتصادية أو بالأحرى التجارية في المشروع[٥٥].

وقد اتجه السودانيون المحليون إلى ترك الإيجار عندما انخفضت أسعار القطن، وخصوصًا عندما كانت الأمطار جيدة بما يضمن محصول ذرة بيضاء معقولاً بدون جهد في الري. على أية حال، أفارقة غرب إفريقيا بسبب اهتماماتهم الزراعية مقابل المصالح الرعوية الكبيرة للعديد من السودانيين الشماليين، لم يُغروا بسهولة للرحيل وبدأوا بالسيطرة على الإيجارات الشاغرة. أيضا في أجزاء من مشروع الجزيرة ذات التربة الجدباء أو الفقيرة التى لم تجذب السكان المحليين إلى الإيجار، مثل هذه المناطق وافق عليها الغربيون بسهولة[٥٦]. وبالتالي قام الغربيون على تلك المناطق التي زهد فيها السودانيون.

في عام ٣٥-١٩٣٦، عندما كانت ظروف الدخل سيئة، وافتتاح الأرض الجديدة فى بلوك الدبيبة Debeiba Block بالتزامن مع موجة التهاب السحائي والطقس غير المناسب، امتلك كثير من الغربيين أرض المشروع. وفي الحقيقة، طوال الثلاثينيات من القرن الماضي كان للركود تأثيره والميل بين المستأجرين المحليين إلى ترك حصصهم والعودة إلى وسائلهم وطرقهم الأصلية للمعيشة بصورة أكثر نشاطًا، خصوصًا في ظل ظروف التصريف السيئ للأرض أو التربة، الأمر الذى كان يتطلب عمالة أكثر ومحصولاً أقل ربحًا. وبالتالي كان الغربي مفضلاً لدى سلطات المشروع[٥٧].

مثل هذه العوامل لعبت دورها فى تركز أفارقة غرب إفريقيا في أجزاء معينة من مشروع الجزيرة مثل المعيلق Milieq و Kab el Gidad Blocks، التى أُخضعت للري أولاً في عام ١٩٣١-١٩٣٢. ومنذ عام ١٩٤٥ مالت أعداد الإيجارات الخاصة بالغربيين إلى الانخفاض ببطئ نتيجة لسياسة الحكومة الجديدة في عدم السماح للإيجارات بالانتقال إلى الأجانب عند موت المستأجر. وقد كان السكان المحليون متلهفين للموافقة على الايجارات، بعد أن تعلموا الكثير من جيرانهم الغربيين. وعند منتصف

---

55) (Hassoun, Islam Ahmed: Op. Cit., p. 98.
56) (Davies, H. R. J.: Op. Cit., p. 227.
57) (Hassoun, Islam Ahmed: Op. Cit., p. 98.

القرن العشرين (١٩٥٢) كان حوالي ٣٠٠٠ من إجمالى ٧٣ ألف مستأجر، يعتبرون من غرب إفريقيا[٥٨].

إن الكفاءة المتفوقة لأفارقة غرب إفريقيا كمستأجرين، مقارنة بالسودانيين الشماليين، توضحه نسبة ساعات العمل للمستأجر وعائلته مقارنة بالعمالة المُستأجَرة. بالنسبة لكل الإيجارات، بصرف النظر عن الحجم، وُجد أنه لكل ساعة عملها المستاجر وعائلته فى إيجارات غير الغربيين، عملت العمالة المستأجرة ٥.١ ساعة، بينما كان فى إيجارات الغربيين ١-٣.٧ ساعة. وكانت الحصص أو الأنصبة ٥-١٠ أيكر acre من القطن هي الأكثر شيوعًا إلى حد بعيد، وبالنسبة لهذه يبرز الغربي بأنه الأفضل. نسبته كانت ١-٤ مقارنة بـ ١-٦.٢ ساعة في حصص غير الغربيين. كان المستأجر السوداني الشمالي يفضل استخدام آخرين للقيام بالعمل إذا كان يمكن أن يتحمله، بينما المستاجر الغربي يتمنى زيادة أرباحه[٥٩].

في ظل الظروف الصعبة وغير المناسبة وطوال تلك السنوات، أظهر الغربيون في الجزيرة مثل هذه النوعيات الجيدة كمستأجرين ومزارعين موثوق بهم باستعداد وكفاءة أعجبت سلطات الحكومة، خصوصًا مفتشو المشروع. وبالفعل طورت سلطات المشروع موقفًا من الإحساس بالمديونية للغربيين، لأنهم وقفوا بجانبهم في أوقات المشقة عندما مال الآخرون إلى تجنب العمل أو هربوا منه. وهكذا لفترة طويلة من الوقت، رحبت سلطات المشروع بشغل الغربيين للحصص في المشروع[٦٠].

لقد أثبت عمال غرب إفريقيا أنه لا غنى عنهم في مشروع الجزيرة؛ فمن مسح عام ١٩٥٩ لظروف العمال هناك، وُجد أنه من معدل ١٣٢ ألف عامل مستخدم على طول الفترة الكلية لزراعة القطن من منتصف سبتمبر إلى منتصف مايو، أكثر من ٣٧ ألف كانوا غربيين. وفي فترة الذروة، من ٢٠٨ ألف مستخدم، ٥٧ ألف كانوا غربيين، وبالتالي المتوسط في كلتا الحالتين ٢٨%[٦١].

في امتداد المناقل الجديدة Manaqil Extension غرب الجزيرة، كان ١٣% من القوة العاملة غربيين. القيمة المضافة لعمالة غرب إفريقيا هي ثقتها. يخرج أفارقة غرب إفريقيا دائمًا، يعملون بجد ويميلون إلى البقاء حتى يتم حصاد المحصول بالكامل، بينما عامة الناس العرب بقاؤهم أقل بكثير. ولعل أفضل تقدير لقطاع غرب إفريقيا من القوة العاملة هو شعبيتهم لدى السودانيين الشماليين الذين كانوا يفضلونهم عن بني شعبهم. وكان من المعتاد أنه فى حين تنهي القوة العاملة السودانية الشمالية العمل قبل ١٢ ظهرًا، فإن العامل الغربي كان يعمل حتى الثانية أو الثالثة عصرًا[٦٢].

خامسًا- توزيع الغربيين في الجزيرة:

نُثرت الجزيرة بعدد هائل من القرى الغربية التي ظهرت بشكل تدريجى نتيجة لظروف امتلاك الأرض والعمالة المختلفة. تشابه هذه الظروف في كافة أنحاء الجزيرة عمومًا، ساهم في الاتساق البارز الذي

---

58) (Davies, H. R. J.: Op. Cit., p. 228.
59) (Ibid.
60) (Hassoun, Islam Ahmed: Op. Cit., p. 100.
61) (Davies, H. R. J.: Op. Cit., p. 228.
62) (Ibid.

ميّز توزيع هذه القرى. مع ذلك، يميل عددهم إلى النقصان بعض الشيء فى الكتل الأكثر غربية، ربما بسبب البعد عن الطريق السريع الذي اعتاد المهاجرون الاتيان منه إلى الجزيرة، وللوفرة والكفاية الامداد بالعمالة الوطنية المسحوبة أو المجتذبة من عرب النيل الأبيض [٦٣].

كانت هذه المستوطنات مؤقتة، ولذلك عُرفت "بمعسكرات العمال" Labour CAMPS، وبالطبع لأن سكانها اشتغلوا كليًا تقريبًا في العمل المؤقت، لذا اختفت بعض معسكرات الغربيين من موقعها. ويعتبر سكان الجزيرة موزعين بالتساوى تقريبًا في كافة أنحاء المنطقة. هذا التوزيع كان يشمل أغلبية نيجيرية من ٢٩٣٢٦ نسمة، ونسبة مماثلة تقريبًا من إفريقيا الاستوائية الفرنسية تُقدر بـ ٢٦٢٩٥ نسمة، ونسبة صغيرة جدًا من السودانيين الغربيين مجموعها ٢٩٧٧ نسمة. مع ذلك يُتوقع بقوة أن الكمية الحقيقية للسكان السودانيين الغربيين حُجب إلى حد كبير، لأن الاحصاء الذي نتجت منه هذه الأرقام أُجري بصورة رئيسية على قاعدة القرية بدلاً من اعتبار الأفراد، لذلك فإن هؤلاء الأفراد كانوا ملائمين للفقد في هذا التصنيف[٦٤].

علاوة على ذلك، أقل بعض الشيء من ثلث عددهم كان يوجد في مجموعة أو كتلة الحاج عبد الله Hag Abdullah Block، والبقية موزعة أو متفرقة على شمال ووسط الجزيرة. ويبرز النيجيريون بشكل رئيسي في وسط وجنوبي الجزيرة، بينما يسيطر الغربيون من المناطق الاستوائية الفرنسية على المجموعة الشمالية. هذا التمييز يمكن أن يُنسب إلى عوامل مؤكدة؛ فيُحتمل أن مشاعر الوجود في أرض أجنبية بين أناس أجانب – لا يتوقفون عن التصريح بتفوقهم – أكثر حدة بين النيجيريين عن المناطق الاستوائية الفرنسية، قد أبطأ انتشارهم شمالاً. كما يُحتمل أن مناخ شمال الجزيرة الأكثر جفافًا، مثل البيئة الأصلية للمهاجرين من المناطق الاستوائية الفرنسية عن النيجيريين، قد فرض بعض المراقبة على التقدم باتجاه الشمال وجعلهم يفضلون الاستقرار في الجنوب[٦٥].

علاوة على ذلك، يُحتمل أن أخبار الأرض المفتوحة حديثًا ذات الفرص المختلفة قد وصلت إلى المناطق الاستوائية الفرنسية بشكل أسرع، وكانت الاستجابة فورية عن حالة الآخرين، وبالتالى كانوا أكثر استعدادًا للاندفاع إلى الكتل الشمالية المفتوحة مؤخرًا نسبيًا. وقد كانت القرى الغربية في الجزيرة صغيرة عمومًا بشكل ملحوظ في الحجم وفي عدد السكان، وتستحق أن تُسمى حِلة hamlet عن أن تُسمى قرى villages. والقرية الغربية لا تبدو مختلفة كثيرًا في مظهرها عن جارتها المحلية، وهي أكثر ضغطًا وازدحامًا من نظيرتها المحلية[٦٦].

---

63) (Hassoun, Islam Ahmed: Op. Cit., p. 103.

64) (Ibid.

65) (Hassoun, Islam Ahmed: Op. Cit., p. 104.

66) (Duffield, Mark: Op. Cit., p. 49, Hassoun, Islam Ahmed: Op. Cit., p. 104, 105.

الخاتمة:

بينت الدراسة أن الاتصال لم ينقطع بين السودان والدول الواقعة غربه عن طريق الهجرات؛ إذ لم تنقطع حركة الناس والأفكار على طول طريق السافانا العشبي الممتد من السنغال إلى إثيوبيا منذ آلاف السنين. كما كان للحج من غرب إفريقيا إلى مكة المكرمة أثره الواضح، بين عوامل أخرى، في هجرة العديد من أهالي غرب إفريقيا واستقرارهم في السودان، ربما بشكل دائم. وشكّل موقع السودان طريقًا مهمًا للحجاج المسافرين بريًا إلى مكة المكرمة من غرب إفريقيا.

كما أكدت الدراسة أن من العناصر الغربية وغالبيتها فقيرة من استهواها البقاء في السودان والعمل في المشروعات الزراعية وتناسي الغرض الأصلي وهو الحج، أو طاب له العيش بعد العودة من الحج فاستقر في السودان، خاصة وقد وجدوا من السلطات الحاكمة كل تشجيع. وكان في قيام المشروعات الزراعية في السودان وحسن المعاملة التي وجدها المهاجرون ما أغرى فريقًا آخر فهاجر إلى السودان بغية العمل وجمع المال، ومن هؤلاء من استقر نهائيًا في السودان فلم يعود إلى موطنه الأصلي.

بينت الدراسة أيضا أن العنصر الزراعى الغربي كان ذات أهمية اقتصادية للسودان في منطقة الجزيرة، كما كان عملهم ضروريًا لنجاح مشروع قطن الجزيرة المروى الذى بدأ عام ١٩٢٥، بل إن بعض المسؤولين فى المشروع أشار إلى أنه بدون أفارقة غرب إفريقيا لم يكن لمشروع الجزيرة أن يعمل بنجاح خلال فترة الكساد.

كما أكدت الدراسة أن الغربيين لعبوا دورًا مهمًا ليس فقط في إنتاج القطن في الحقول، بل أيضا في معالجته. كما سيطر الغربيون على الإيجارات في منطقة الجزيرة عندما انخفضت اسعار القطن في الثلاثينيات من القرن الماضى، في الوقت التى تركها السودانيون المحليون. كما قاموا على المناطق ذات التربة الجدياء والفقيرة في بعض الأجزاء من مشروع الجزيرة التي زهد فيها السودانيون.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً- المراجع العربية والمعربة:

- سليمان عبد الغنى مالكي وسعد الدين أونال: تاريخ الحج من خلال الحجاج المعمرين، دراسة تاريخية ميدانية، مركز أبحاث الحج، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، (د.ت).
- كمال محمد عبيد: العلاقات السودانية التشادية وأثرها في نشر الثقافة العربية الإسلامية، مركز البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة إفريقيا العالمية، الخرطوم، ٢٠٠١.
- محمد عبد الغنى سعودي: السودان، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٥.

ثانيًا- الدوريات العلمية:

محمد محمود السرياني: رحلة الحج البرية من أقطار غربي إفريقيا ووسطها إلى مكة المكرمة، مجلة الدّارة، العددان ١، ٢، ١٤٢١هـ.

- Arkell, A. J.: More about Fung Origins, Sudan Notes and Records, XXVII, 1946.
- Barbour, K. M.: Population Shifts and Changes in Sudan since 1898, Middle Eastern Studies, Vol. 2, No. 2, 1966.
- Bernal, Victoria: Colonial Moral Economy and Discipline of Development: the Gezira Scheme and "Modern" Sudan, Cultural Anthropology, Vol. 12, No. 4, 1997.

- Beshir, M. O.: the Gezira Scheme: An Experiment in Socio-Economic Development, Civilizations, Vol. 11, No. 1, 1961.
- Birks, J. S.: Overland Pilgrimage from West Africa to Mecca: An Achronism or Fashion? Geography, Vol. 62, No. 3, July 1977.
- ----------: The Mecca Pilgrimage by West African Pastoral Nomads, the Journal of Modern African Studies, Vol. 15, No. 1, (Mar., 1977).
- Davies, H. R. J.: the West African in Economic Geography of Sudan, Geography, Vol. 49, No. 3, XXTH International Geographical Congress, July 1964.
- Duffield, Mark: Change among West African Settlers in Northern Sudan, Review of African Political Economy, No. 26, Sudan, 1983.
- Gaitskell, Arthur: the Gezira Scheme, Journal of the Royal Society of Arts, Vol. 104, No. 4966, 1955.
- Hassoun, Islam Ahmed: Western Migration and Settlement in the Gezira, Sudan Notes and Records, Vol. 33, No. 1, June 1952.
- Holy, Ladislav: Bulletin of the School of Oriental and African Studies, University of London, Vol. 59, No. 3, 1996.
- McLoughlin, P. F. M.: Labour Market Conditions and Wages in the Three Towns 1900-1950, Sudan Notes and Records, Vol. 51, 1970.
- McLoughlin, Peter F. M.: the Sudan's Gezira Scheme: An Economic Profile, Social and Economic Studies, Vol. 12, No. 2, 1963.
- Misra, H. N.: Rural-urban Relations in Sudan: A Case Study of the Gezira Scheme, Ekisties, Vol. 50, No. 300, Urbanization and Social Change in the Arab World, 1983.
- O'Brien, Jay: the Formation of the Agricultural Labour Force in Sudan, Review of African Political Economy, No. 26, Sudan, Jul., 1983.
- Shair, I. M. and Karan, P. P.: Geography of Islamic Pilgrimage, Geojournal, Vol. 3, No. 6, Natural Resources Development in the Tropics, 1979.
- West African Pilgrims to Mecca, Geographical Review, Vol. 67, No. 4, Oct., 1977.

ثالثًا- رسائل علمية جامعية:

- شريف محمد شريف: أرض الجزيرة بالسودان، دراسة اقتصادية، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٦٠.
- عنايات الطحاوي: إقليم الخرطوم، دراسة جغرافية لأهم الظاهرات الطبيعية والبشرية، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، (د.ت).